مدح التوكل وذم التواكل

عباد الله: حديثنا اليوم عن خلق عظيم، وعبادة جليلة من عبادات القلب، مربنا الرضا وحسن الظن وسوء الظن والرجاء، هذه كلها من أعمال القلب، ونحن اليوم مع خُلُق آخرَ من أخلاق الإسلام العظيمة الجليلة، مع خُلقٍ عظيمِ النفع، جليلِ القدر، كبيرِ الأثر، يحتاج إليه العبدُ في سرّائه وضرّائه، وفي جميع أحواله، بل هو شعبةٌ من شُعَب الإيمان، وعملٌ من أجلِّ أعمال القلوب، دلت على فضله آياتٌ عديدة، وأحاديث كثيرة، من التزم به حماه الله و وقاه، ورزقه وكفاه، ألا وهو التوكل على الله وصدقُ الاعتماد عليه سبحانه، وذم التواكل، إذِ التوكلُ على الله من أفضل الأعمال القلبية بعد الإيمان واليقين التي دعا إليها الإسلام، وأصل من أصول الإيمان، قال تعالى: وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [المائدة]وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا[رواه الترمذي]التوكل على الله واجب ديني وفريضة على كل مسلم، والمسلم بلا توكل كأنك تقول: المسلم بلا إيمان، فالله عندما وصف المسلمين في كتابه جاءت من أعظم صفاتهم: التوكل على الله، قال الله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال]لقدْ ربَّى الإسلامُ المسلِمين على التَّوكُّلِ على اللهِ عزَّ وجلَّ، وتَعليقِ القلْبِ به سُبحانَه وحْدَه؛ لأنهم يعلمون أنه لنْ يَقَعَ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ إلَّا بقَضائِه وقَدَرِه سُبحانه، إلَّا أنَّ الفَهمَ الصَّحيحَ للتَّوكُّلِ لا يُنافي الأخْذَ بالأسبابِ وتَحصيلِها، التوكل على الله لا يَتَنَافَى مع بذل الأسباب، فكثير من الناس يظن أن التواكل توكُّلٌ، ويظن أنه إذا ترك الأسباب فقد توكَّل، لا، فالله سبحانه قد أقام الكون والخلق على أسباب ومسببات ونواميس وقوانين وأقدار تُدفع بأقدار، والله سبحانه وتعالى علمنا أننا لا نتوكل على السبب وإنما نتوكل على الله المسبب لهذا السبب، فالسبب يصيب والسبب يخيب، ولكن توكلنا على رب العالمين مصيب ولا شك، كالذي يأخذ الدواء لا يتوكل على الدواء، أو الذي يذهب إلى الطبيب لا يتوكل على الطبيب، إنما يأخذ الدواء ويتوكل على الله فيسأله الشفاء، فنحن إذاً لا نسأل الطبيب الشفاء، ولا نسأل الدواء الشفاء، وإنما نسأل الشفاء من الله كما قال ربنا عن أبينا إبراهيم الخليل علية والسلام: إلا رب العالمين.... واعلموا عباد الله أن التوكل ممدوح والتواكل مذموم، ويُعرَّف التَّوَكُّل: بأنه صِدقُ الاعتماد على الله تعالى في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المَضَار، مع فِعلِ الأسباب التي أمَرَ الله بها، فالمتوكلون يفوضون أمرهم لله وحده، وهذا هو جوهر التوكل، وحقيقتُه: اعتماد القلب على الله، مع الأخذ بالأسباب والتَّيقُّنِ الكاملِ بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو: الرزَّاق، الخالِقُ، المُحْيِي، المُمِيت، لا إله غيره، ولا ربَّ سِواه، قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: حَسْبُنَا اللَّهُ-توكلنا على الله-وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وقالها مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة حِينَ قَالُوا لهم: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[آل عمران]إذاً التوكل الحقيقي هو اعتماد القلب على الله، مع بذل الجهد والأخذ بالأسباب المشروعة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما رءا أناسا يجلسون في المسجد ويتركون العمل: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني: فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، أخرجوا فاعملوا، الرزق يأتي عن طريق العمل والسعي بين الناس، أما التواكل، فهو ادعاء الاعتماد على الله دون أخذٍ بالأسباب، وهذا ليس من التوكل، بل هو من الكسل والضعف، فالمؤمن يتوكل على الله في طلب الرزق، لكنه يسعى ويجتهد ويعمل، انظروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة، أخذ بكل الأسباب: اختار الرفيق، وخبّأ الأثر، واستأجر دليلًا خبيرًا، ومع ذلك قال لأبي بكر: لا تحزن إن الله معنا، المؤمن يعمل، ويجتهد، ويسعى، ثم يفوّض أمره لله ويثق بحِكمته، وقد جسّد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى حين قال للرجل الذي ترك ناقته دون ربط: أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ، أي خذ بالأسباب ثم اعتمدْ على ربّ الأسباب، هذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يعني التواكل، أما التواكل عباد الله مذموم بل هو داءٌ عضال، هو ادعاء الاعتماد على الله دون عمل أو أسباب، ولذا قيل: فالتوكل عملُ قلبٍ وعملُ جوارحٍ، فلا يصح أن يترك الطالب المذاكرة والمراجعة ثم يقول: أنا متوكل على الله في النجاح، أو أن يترك العاملُ العملَ ويطلب الرزق! بدعوى أنه متوكل على الله ويطلب اللهَ أن يرزقه، فيعتمد على الدعاء فقط دون بذل الجُهد هذا "تواكل"، عباد الله: التوكل على الله من العبادات القلبية، فهو واجب على كل مسلم، ولا يكمل إلا بأعمال الجوارح، ومن صرفه إلى غير الله فقد أشرك، ولهذا التوكلِ ثمار في الدنيا والآخرة، ومن عايش التوكل على ربه علم حقيقة ضعف البشر أمام خالقِهم، وعلم أن الأنبياء والرسل توكلوا على الله وأخذوا بكل الأسباب، وجعلوا اعتمادهم على مسبب الأسباب، فلنتوكل على الله حق التوكل، ولنبذل الأسباب، ونعلم أن الأمر كله بيد الله قال تعالى: فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ، وعن عمران بنِ حصين رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون [رواه البخاري وزاد: مسلم وابن ماجه والترمذي] مع كل ألف سبعون ألفا، هؤلاء السبعون ألفاً هم فئة مميزة في الأمة، لكن هذا لا يعني أن غيرهم لا يدخل الجنة، بل قد يكون في غيرهم خير كثير، الدعاء.

خطبة الجمعة ليوم 19 ديسمبر 2025 م